

الباب الأول

مدخل عام

ويتضمن الموضوعات التالية :

- تعريفه وأنواعه وتاريخه
- أهمية الضحك
- الأسباب والآداب والمراتب
- حاجة الإنسان الى الضحك
- جذوره فى التراث الشعرى العربى
- الضحك فى الأدب
- محاولة لتفسير الضحك
- من مزاح النبى ﷺ

obeikandi.com

تعريف الضحك:

ضَحِكٌ / ضَحِكَ عَلَى / ضَحِكَ مِنْ يَضْحَكُ ، ضَحِكًا وَضَحِيحًا وَضَحْكًا ، فهو ضاحك ، وضحك الشَّخْصُ : انبسط وجهه وانفرجت شفتاه وبدأت أسنائه وأحدث أصواتًا مُتَقَطَّعة تعبيرًا عن سروره ، عكسه بكى ، {وَتَضَحُّوْنَ وَلَا تَبْكُوْنَ} والضَّحْكُ: الْعَجَبُ وَضَحِكَ ضَحِكًا ضَحْكًا ، وَضَحِكًا: انْفَرَجَتْ شَفَتَاهُ وَبَدَتْ أَسْنَانُهُ مِنَ السُّرُورِ وَضَحِكَ مِنْهُ ، وَبِهِ سَخِرَ مِنْهُ وَضَحِكَ عَجَبًا .

والضحك استعداد فطري في الإنسان لا يكتسبه بالتجربة، وهو انفعال إنساني خاص يتميز به عن بقية الحيوانات، ولذلك عرف الإنسان بأنه حيوان ضاحك وله ككل الغرائز أركان ثلاثة: مؤثر أو باعث يستثيره، وحالة انفعالية مصاحبة، ووظيفة أو غاية يسعى إلى تحقيقها.

وما الضحك إلا حركة داخلية وخارجية، لها سماتها المعروفة بإخراج صوت خاص من جهة، وباهتزاز الجسم هزات تختلف وقوة الضحك من جهة، وطريقة الأشخاص وعاداتهم من جهة أخرى.

وهو شكل من أشكال التعبير الذي يظهر خارجياً على الإنسان في صورة مرح وفرح ويوصف أيضاً بأنه رد فعل فسيولوجي نتيجة للمرور بموقف ما مثل سماع نكتة أو عند سماع مداعبة وغيرها من الأسباب الأخرى وشكل من أشكال التعبير الصريح عن التسلية والمرح، ومشاعر

أخرى أحياناً والضحك كرد فعل طبيعي يكون عند الانسان السليم والسوى علي المواقف المضحكة كما يمكن أن يكون وسيلة دفاع ضد مواقف الخوف العفوية ويعد تعبير عن التعاطف والتفاهم المتبادل بين البشر.

أنواع الضحك

وللضحك صنوف وأنواع فهناك ضحك السرور والرضا، وضحك التهكم والسخرية، ضحك المزاح والطرب، وضحك العطف والمودة، وضحك الشتماتة والعداوة، وضحك الدهشة والمفاجأة، وضحك العجب والإعجاب والضحك غير الطبيعي ويوجد حين يعي مخ الإنسان بالحالات غير الطبيعية التي يمر بها الفرد، ويستطيع التفريق بينها وكذا الحال مع الضحك الطبيعي وفي الضحك غير الطبيعي، نجد أن الضحك المرضى إن جاز القول يكون مصاحباً للحالات التالية:

- تلف في أنسجة المخ، من الممكن أن يتسبب في حالة الضحك غير الطبيعي وبعض أورام المخ وبعض أنواع الحول وبعض الاضطرابات النفسية مثل العته أو الهستيريا والصرع.

ومن الآثار السلبية التي يولدها الضحك غير الطبيعي إغماءة الضحك التي يفقد فيها الإنسان وعيه من شدة الضحك.

تاريخ الضحك

كان العرب يحبون الضحك بشكل تلقائي وعفوي، ويعرفون تأثيره النافع، وقد ورد هذا من خلال بعض النواذر أو القصص الطريفة، من خلال نواذر جحا والبخلاء من كتابات الجاحظ، وكذلك ما ورد في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني إذ قال القاضي عياض: التحدث بمُلح الأخبار، وطُرف الحكايات تسليّة للنفس، وجلاء للقلب.

وفي بداية القرن العشرين، تم الاعتراف بعلم نفس الضحك، وبات هذا الأخير يشغل حيّزاً من الرسائل الفلسفية، حتى أن عالم النفس الشهير سيجموند فرويد أشار إلى فوائده، واليوم عندما يضع العلماء الخطوط الأولى لفسيولوجية الضحك فإنهم لا يعزّون له نتائج إيجابية فحسب، بل وعدداً من المميزات العلاجية أيضاً.

أهمية الضحك

لم يجد ن. كازنس الصحفي المشهور بكتابة القصص شيئاً يريح من الألم أفضل من مشاهدة لقطات من الأفلام الكوميدية الشهيرة بماركس براذرز لقد أصيب كازنس لسنوات عديدة بمرض التهاب المفاصل، وأقسم أن ١٠ دقائق من الضحك الذي تغلب عليه القهقهة في أثناء

مشاهدة فيلم من هذه الأفلام البالغة المرح، مكنته من قضاء ساعتين من دون ألم.

وفي كتابه تشريح المرض كما يراه المريض وصف كازنس وصفة العلاج بالضحك التي فرضها على نفسه والتي يبدو أنها حسنت حال الالتهاب والألم لديه فقد صار في نهاية الأمر قادراً على العودة إلى العمل، إذ حصل على وظيفة أستاذ مساعد في كلية الطب بجامعة كاليفورنيا، حيث قام بدراسة آثار العواطف في الحالات البيولوجية والصحة.

إن مجموعة المرضى المتأثرين بمثل ذلك العلاج المعجز لا تعتقد أن للفكاهة منافع نفسية فحسب، وإنما أيضاً تُشفى فعلاً الأمراض وفي الحقيقة، يوجد فقط قلة متناثرة من الأدلة العلمية تؤيد الفكرة الأخيرة؛ ولكن يبدو أن للضحك والفكاهة أثراً ذات شأن في الحالة النفسية إلى حد التأثير حتى في إدراك الألم نفسه والأكثر من ذلك، فإن الصحة النفسية الجيدة تؤثر إيجابياً في صحتنا كلها، بما في ذلك إمكانية التعرض لخطر المرض.

فالضحك يريح من التوتر العصبي ويحسن المزاج، وسماع النكت ربما يخفف القلق الذي نشعر به ومقدرة التسلية لوضع حد للألم العضوي الخطير موثقة جيداً، وكما تشير تجربة كازنس، فإن تأثير الفكاهة المسكن للألم يستمر بعد نهاية الابتسامة.

وتفيد الدراسات أن المرح، وهو سمة تجعل الناس أكثر استعداداً للتفاعل مع ما يضحك، مرتبط بسهولة التكيف المتمثل في القدرة على بقاء المرء متزن العقل في الظروف الصعبة، ومرتبط أيضاً بوجود علاقات وثيقة ويشير العلم إلى أن روح الفكاهة أمر جذاب للجنس الآخر فالنساء ينجذبن أكثر إلى الرجل صاحب الروح المرحّة ومن ثم، وبطرق مختلفة، قد يزداد الرضا والارتياح بالحياة مع المقدرة على الضحك.

والضحك ليس مجرد ظاهرة بشرية، بل غريزة أو حاجة إنسانية خُص بها البشر من خالقه جل شأنه، لعله يواجه بهذا الضحك صعاب الحياة ومشاقها، ويصمد أمام تحدياتها وتقلباتها، ويتحمل أحزانها وآلامها فضلاً عما يتهده من قلق/حصار الموت، وشبح الفناء فهو من أكثر المخلوقات شعوراً بالألم والمعاناة .

والإنسان ابتكر وطور أسباب وأنواع وفنون الضحك والإضحاك والفكاهة والمرح والدعابة والطرفة والمزاح والتندر والتورية والسخرية المهذبة الخ فنون مثلت - أفراداً وجماعات، شعوباً وقبائل - منافع نفسية وعصبية وفسولوجية، ودلالات اجتماعية، وجماليات لغوية وثقافية.

حاجة الإنسان إلى الضحك:

لكل إنسان حي في هذا الوجود حاجات مادية كثيرة، يستطيع في أكثر الأحيان الوصول إليها، وقد تحول في بعض الأحيان بينه وبينها الحوائل والموانع، فلا يصل إلى بغيته إما لأسباب مادية تجعل ما ينبغي تحقيقه أمراً صعباً أو مستحيلاً، وإما بسبب طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه إذ تختلط رغباته برغبات غيره، وتصطدم مطالبه بمطالبهم، فيتوقف وصوله إلى أهدافه على مقدار علاقته بهم، وعلاقته بهم به.

فإذا أخفق الإنسان في الوصول إلى غايته، امتلأت نفسه أحقاداً، ما تلبث أن تؤثر في جسمه وجهازه العصبي تأثيراً سيئاً، ويزداد هذا التأثير سوءاً حتى ينتهي إلى أحد أمرين:

إما أن يصاب بعلّة في عضو من أعضائه، أو ينتابه فتور عام يضني به الجسم ويهزل.

وقد يحاول المرء أن يخفف عن نفسه ما يفدحه من آلام فينجح في التخلص منها أو من بعضها نجاحاً ما، بالتسرية عن نفسه أو بالاختلاط بأفراد جنسه، شاكياً بثه وهمه، أو مستمعاً إلى ما يشبه آلامه، فتخف تلك بمثيلاتها تأسياً وهكذا تحدث شبه حركة داخلية في الجسم، يظن إليها الإنسان بطبيعته، فيزاولها، وكذلك قد يكون للحركة الخارجية التي تهتز بها أعضاء الجسم، كانتقاله من مكان إلى آخر مغاير لما كان فيه، تأثير قوي في تخلصه شيئاً فشيئاً وإلى حد ما، مما يعاني من آلام.

إن فالحركة الداخلية النفسية أو الخارجية العضوية من أقوى الدعائم التي يحاول الإنسان بها مواجهة عوامل الهدم في الطبيعة، بالتخلص مما يعكر مزاجه من شوائب مادية أو نفسية، وقد عبر أرسطو عن الجانب النفسي من تخلص الإنسان من آلامه بقوله إنه يظهر عواطفه. والطفل بمحض غريزته لا يستطيع إلا أن يقضي طفولته وصباه متحركاً في كل الأمكنة التي تستطيع أن تحتل حركته، وتتسع لها، وعملية نموه في الحقيقة ما هي إلا حركة مستمرة وما الحياة إلا حركة دائبة .

فالجانب المادي من جسم الإنسان ينشد الحركة الخارجية لمعالجة الرواسب المتعددة والتخلص منها، كذلك الجانب الذهني من الإنسان يحاول بالحركة أن يطرد الآلام التي هي أفكار وعواطف لا يحبها بل بمقتها كل المقت ويحاول أن يتخلص منها. وليس هناك وسيلة للتخلص من العواطف المؤلمة المختلفة إلا بحركة ذهنية داخلية تطرد هذه الآلام خارجاً، ولا تتولد هذه الحركة إلا بالضحك.

جذور الضحك في التراث الشعري العربي

الضحك ظاهرة اجتماعية وجدت بوجود الإنسان، وفطن إليها الفلاسفة منذ القدم فدرسوها، وأبرزوا مظاهرها الاجتماعية والأخلاقية والتربوية لا سيما أرسطو والجاحظ ثم برجسون، فكادوا يجمعوا على أن المضحك تشوّه غير مؤلم ففي كل ضحك عبث وهمي أو حقيقي من القيم، وهو ذو

وظيفة اجتماعية، فالضحك يرد المضحوك منه إلى سواء السبيل ويكبح شذوذه، ولا شك في أن العرب الأول عرفوا الضحك بسبب طبيعتهم الاجتماعية، وقد أخذت طريقها في الشعر ديوانهم ومنتهى أدبهم منذ نشأته على ما في طبائع عرب الجاهلية من خصوصيات توهم بابتعادهم عنه، لقد عجنت الحياة القاسية والاضطهاد الاجتماعي والقهر الإنساني الذي لاقاه العرب ذوى الطباع القاسية (الأغربة) طبعهم بالسخط والحنق والسوداوية، مما حرّمهم من الطبع الرضي الذي يمنح صاحبه الشعور بالسعادة والتفاؤل يضاف إلى هذه العوامل الخاصة بالأغربة عوامل اجتماعية، إذ لم تبد الجاهلية الحماسة للساخر، لأن قيم البطولة والجلال والسمو التي يعلنونها في الرجل تستوجب الرصانة، والجد والحزم في المرء، وهي مظاهر نقيضة للسخرية، لم تلق الاهتمام اللازم، لذلك قلت السخرية في أشعارهم، إذ كانت مجالها عندهم في معرض غرض الهجاء، يبرزون عبره قيم القبيح أو الهزليّ المضحك الناشئ من المفارقة بين السوي والمشوّه والسُخريّة كما بدت في لوحات الأغربة تمثل نقيض البطولة، والجليل والسامي وقد عبّروا عنه من خلال تصوير القبح المقيت في الشكل والتفاهة في المواقف والعلاقات والقيم، وهي طريقة تحرّض وتعمل على تكوينه بصفته تعبيراً قوياً عن الإحساس بالتناقض والقبح والمخالفة للمرغوب والجميل اجتماعياً، ومن هنا تبدو العلاقة المشتركة بين الساخر والمضحك، وهذه العلاقة المشتركة يشعر

بها كل إنسان في خبرته الجمالية، والاختلاف بينهما، يرجع إلى أسباب نشوء كل منهما وإن اختلفت سمات كل منهما، ففي حين يكون المضحك ظاهرة نفسية يكون الساخر ظاهرة جمالية.

الأسباب والآداب والمراتب

أسباب الضحك

يقول نيتشه: إنني أعرف تماماً لماذا الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يضحك؟ فلما كان هو أعمق الكائنات شعوراً بالألم، كان لا بد له من أن يخترع الضحك فالتعس هو الذي يضحك لكي يبدل بتعاسته فرحاً لذا ليس من المستغرب أن تنبع أجمل فكاهة من أعمق الناس حزناً وقد تولد أجمل ضحكة عقب بكاء طويل ويسبق الفعل الانفعال ويصنعه، والضحك عمل الإرادة، وفي وسع المرء أن يقرر أن يضحك، والناس لن يصبحوا سعداء إلا إذا كرسوا أنفسهم ليصبحوا سعداء فوفق نظرية الانفعالات لجيمس - لانج: أننا لا نضحك لأننا مسرورون بل نحن مسرورون لأننا نضحك فالمظاهر العضوية لانفعال السرور هي العلة الحقيقية للضحك، وهو ما أكده أيضاً العالم النفسي مكدوجال إذا كنا نشعر بالسرور حينما نضحك، فإننا نشعر بالسرور لأننا نضحك.

إن اختلاق أسباباً للضحك، وصنع مواقف فكاهية باعثة عليه، وإعمال العقل لتنشيط خلايا المخ، وتغيير الحالة النفسية نحو البهجة أعمال ليست باليسيرة الهينة السهلة فمؤلف الكوميديا يحرص، ويضع نصب عينيه، أن يوحى بالتفوق الدائم ذكاء، ومعرفة، وإمكانات وقدرات الخ لجمهوره - الذي يريد إضحاكه - علي شخوص مسرحيته وملهاته ولعله من الجائز أن يجعل بعض شخصيات عمله تشعر داخل العمل الكوميدي بتفوقها وضحكها، لكن يظل ذلك دوماً دون مستوي شعور الجمهور بالتفوق الذي هو سبب رئيس للضحك لذا يعتبر مصدر الضحك كامناً في الضاحك نفسه، وإحساسه الدائم بالتفوق الشخصي، وليس في موضوع الضحك ذاته، وهو ما يفسر به كلا من مارسيل بانيول، وبودلير معظم أسباب الضحك وتنوعاته .

ولقد ربط البعض بين الضحك وبين معامل ذكاء الأفراد فبقدر هذا الأخير يكون الاستمتاع بالفكاهة والنكات خاصة تلك التي تحتوي على رموزاً لها عدة مستويات للفهم حني أنهم ذهبوا للقول أننا لا نضحك على النكتة بقدر ما نضحك إعجاباً بذكائنا على أننا قد فهمناها.

إن غالب المواقف المضحكة هزلية أو فكاهية إنما تنطوي علي عنصر لهو ولعب، وهو يرحل بالمرء بعيداً عن جد الحياة الواقعية إن اللا جد واللامبالاة في حالة الضحك سبب وباعث علي الضحك ومن هنا يري

هنري برجسون وفرويد أن تلك المواقف الفكاهية شأنها شأن اللهو واللعب تنطوي دائماً على مبدأ اللذة .

وفي بعض الحالات لا يكون الضحك تعبيراً عن السرور، فهناك الضحك الاجتماعي لمجاملة الآخرين، ففي اليابان مثلاً ينظر للضحك على أنه واجب اجتماعي.

وعلى الإنسان الذي أُلْمِتَ به كارثة أن يرسم على وجهه ابتسامة وهو يتلقى مواساة الآخرين، وهذا ما يطلق عليه أحياناً قناع السعادة أو كما في عنوان رواية إحسان عبد القدوس العذاب فوق شفاه تبتسم، أو كما ورد في تراث العرب شر البلية ما يضحك وهناك تعبير المتنبّي الذي يقول: ولكنه ضحك كالبكاء، وكل هذه المواقف وغيرها لا يمكن أن يكون الضحك فيها وليداً لمناسبة سارة ليس ذلك فحسب فهناك حالات ومواقف مرضية نجد رد الفعل بالضحك نتيجة لبعض الاضطراب النفسي المؤقت مثل الضحك الهستيري، ونوبات الضحك البديلة للتشنج التي لا تكون خلالها سيطرة العقل كاملة على السلوك ومنها الضحك نتيجة لمواد خارجية تؤثر على الأعصاب مثل غاز أكسيد النتريك المعروف بغاز الأعصاب والمستخدم في الحروب الكيماوية، وعند تعاطي الكحول الذي يعطل آلية الكف أو المنع فينتج عن ذلك حالة انشراح عامة وفي الطب النفسي يصادف بعض الحالات يكون فيها السرور المرضي واضحاً

لدرجة لا نملك إلا أن نتفاعل معها بانشرح مماثل مثل حالات الهوس التي يطلق عليها أحياناً لوثة المرح، وحالات أخرى لا تسبب لنا نفس الإحساس رغم أن المريض يقهقه عالياً ولكن ضحكاته لا تثير أي تعاطف مثل مرضى الفصام العقلي.

وهناك الكثير من المواقف والملابسات الأخرى التي تسبب الاستجابة لدى الناس بالضحك وقد حاول بعض الباحثين حصرها، ومنها الضحك للدهشة عند حدوث مفاجأة ما، والضحك عند مشاهدة الفشل البسيط الذي يمتنى به الآخرون، وقد نضحك أيضاً لحدوث بعض المفاجآت غير المتوقعة أو المصادفات العارضة في بعض المواقف .

وكذلك نضحك لدى مشاهدة أو سماع مفارقة جديدة أو نكتة مثلاً ومن المناسبات الأخرى التي تجعلنا نضحك الاستجابة لضحك أو ابتسامة شخص آخر، أو أثناء الاشتراك في لعبة جماعية، وقد يكون الضحك أيضاً استجابة للمس الموضعي لبعض مناطق الجسم من جانب شخص آخر علي سبيل الدعابة وهذا ما يطلق عليه الدغدغة.

آداب الضحك

كثرة الضحك المبذل والمليء بالقهقهة ضارة، والقهقهة ليست صفة من صفات الإنسان الحضارية، وإنما صفة تتميز بها القردة فقط كذلك يجب علينا الابتعاد عن الضحكة الصفراء الكئيبة والتي فيها صفة

التشفي من الآخرين، والنيل من نقص عقلي أو جسدي ألمّ بهم، وهي ضحكة فيها تعالي وتسامي على الآخرين.

وكذلك في القول المأثور نتذكر أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك وقلّة الشبع وقلّة الحسد وطبعاً حين نتكلم عن الضحك نقصد ذلك الجانب الذي يدفع المشاكل والهموم والأحزان.

ولا نقصد ذلك الضحك الذي قد يصبح مهنة عند البعض، فالضحك له شروطه وضوابطه حتى يحافظ الإنسان على سلامة شخصيته وتوازنه، ولكن الضحك بغير قصد يमित القلب ويجعله كالصخرة الصماء، ولذلك قيل بالمثل العربي الشهير: الضحك بلا سبب قلة أدب.

ولقد أثبتَ علمياً وعملياً أن الضحك عملية رياضية لكثير من أعضاء الجسم، لاسيما القلب وعضلات الوجه وبشرته على وجه الخصوص، فلكي تعبس يلزمك تحريك أكثر من أربعين عضلة في وجهك، أما لكي تبسم وترتاح فلا تحتاج إلا لتحريك أقل من خمس عضلات من عضلات الوجه.

فهكذا نرى كم نرهن أنفسنا ووجوهنا في حمل هذا الكم من العبوس، صحيح أن الإنسان لا يستطيع أن يقاوم مشاكله ويتجاهل متاعبه، ولكن

لا بد من استراحة الإنسان من حين لآخر، في محاولة تخفيف عبء الشدة الأكبر عن عضلة القلب.

مراتب الضحك عند العرب :

أول مراتبه ، التبسم ، ثم الاهلاس ، وهو اخفاؤه ثم الانكلال ، وهو الضحك الحسن ثم الكتكته ، وهو أشد منه ثم القهقهه ، والقرقرة ، والكركرة ثم الاستغراب ثم الإهزاق والزهزقة ، وهو أن يذهب به الضحك كل مذهب ، وبلا انضباط .

وعلى الرغم من فوائد الضحك الجمّة وخاصة للقلب، إلا أنه في بعض الأحيان يسبب مشاكل صحية خطيرة ومنها السكتة الدماغية ومن الحالات التي يوصى فيها بعدم الضحك وتجنبه: - عقب جراحة في البطن، لأن الضحك قد ينجم عنه فك غرز خياطة الجراحة - مريض الفتق - مريض البواسير في مرحلة متقدمة - مضاعفات لاضطرابات في العين - المرأة الحامل، وخاصة إذا كانت هناك بعض العوامل التي تهدد بعدم أمان الأم أو جنينها - مرض الدرن، التهاب الشعب الهوائية المزمن، مرضى عدوى الجهاز التنفسي والحالات التي يكون فيها السعال مصحوباً ببلغم الذي يؤدي إلى نشر العدوى - الشخص السليم الذي يشعر بعدم ارتياح مع الضحك، وحينها عليه اللجوء الفوري إلى المساعدة الطبية.

تفسير الضحك

الضحك عملية شديدة التعقيد وواحدة من وظائف قشرة الدماغ المتطورة ويستلزم الضحك إدراكاً للأمر التي تطرأ في حياة الإنسان ومعانيها ، ويحدث الضحك بعد حدوث إدراك معين يعمقه الاستدعاء والربط والتفسير ، ويؤدي الإدراك إلى انفعال يتحول إلى انقباضات متتالية في عضلات الوجه والصدر والبطن وإلى اهتزاز الجسم كله والقهقهة وربما التصفيق والانحناء وهز الرجلين والانقلاب على الظهر في بعض الأحيان .

وقد حاول العالم الانجليزي، سبنسر تفسير الضحك بما يشبه ما سبق ويعرف تفسيره بنظرية الطاقة وبذلك كان سبنسر ممن يفسرون الضحك بتفسير فسيولوجي، وهناك بعض الفلاسفة يحاولون تفسيره تفسيراً نفسياً محضاً ضاربين صفحاً عن الناحية الفسيولوجية التي يحسها الإنسان أثناء الضحك وهكذا انقسم الفلاسفة منذ فجر الإنسانية إلى فريقين: أحدهما يفسره تفسير فسيولوجي، والآخر تفسير سيكولوجي، وأخيراً حاول بعضهم الربط بين التفسيرين فيما سمي بالسيكوفسيولوجي ولعل الفلاسفة الوجوديين هم أقرب الناس إلى فهم هذه الظاهرة الإنسانية فحاولوا الابتعاد عن محاولة تفسيرها قائلين يحسن بنا أن نقلع عن محاولة تفسير الضحك أو البحث عن علل للفكاهة، لكي نقصر على النظر إلى الملابس أو الذرائع التي تكتنف تلك الظاهرة ولو أننا حاولنا

أن نفهم الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة إنسانية، لتبين لنا أن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هنالك من مواقف بشرية من العبث أن نجتزئ في فهمنا للضحك تطبيق نظرية واحدة نحاول عن طريقها أن نتأول شتى المواقف البشرية المضحكة، لأن الحياة البشرية أكبر من أن تحيط بها نظرية تقوم بتأويل ما تنطوي عليه مواقفها الكثيرة من قيم ومدلولات.

وتتعدد التفسيرات التي قدمها الفلاسفة والعلماء لموضوع الضحك ومنها :

١- الضحك هو ممارسة عدوانية في جوهرها حيث يحس الضاحك أن المضحوك منه أقل منه شأنًا وأقل قيمة وفي ذلك استعلاء وشعور بالتفوق يعوض مشاعر النقص وهذه العدوانية ليست مذمومة إلا حين تعتمد إلى إيذاء مشاعر الآخرين وجرحهم وهي مقبولة في إطار الضحك والإضحاك ومتعارف عليها على أنها مزاح وفكاهة وليست جدًّا وهذا الافتراض قديم ولكنه مؤثر وباقي قال به أفلاطون وأرسطو وصولاً إلى فولتير وغيره .

٢- الضحك ينشأ بسبب التناقض بين الشيء أو الأمر الحادث وبين ما اعتدنا أن يكون عليه ويفسر ذلك أن الضحك ينتج عن المفارقة والتناقض وغير المتوقع أو المضخم أو غير المألوف أو سوء الفهم

والتفاهم العادي ويؤكد الفيلسوف الفرنسي برجسون هذه النظرية في كتابه النادر الضحك عام ١٩٢٤ ، وغيره من الفلاسفة.

٣- الضحك ينشأ بسبب إرتخاء مفاجئ وتفكك مؤقت في مناطق الضبط النفسي بسبب التوتر والإحباط والعقد التي نحملها في داخلنا والتي تنتج عن ضغوط الضمير والقيم وغيرها من الضغوط ، ويأتي المثير الخارجي للضحك ليفتح المجال لإزالة التوتر وشحنات الانفعال المتنوعة بداخلنا وقد بين التحليل النفسي لفرويد أن الضحك يشبه الحلم من حيث تحلله من القيم والممنوعات وأنه كلما زادت الضغوط كلما احتاجت تركيبتنا النفسية إلى التخفيف منها بعدة وسائل ومنها الأحلام والضحك وفي ذلك نكوص مؤقت إلى مرحلة الطفولة بما فيها من أحلام براءة وخيالات سعيدة جميلة ويمكن أن يصبح هروباً من الواقع ومرضاً كما يمكن أن يكون نضجاً وقوة ونوعاً من السمو الأخلاقي الذي يجعل الإنسان يواجه مواقف الحياة الصعبة بروح الهزل والاستخفاف وعدم الاكتراث .

٤- الابتسام والمرح والضحك والبشاشة والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والكوميديا كلها تصدر عن طبيعة واحدة في النفس البشرية المتناقضة حيث تمل الجد والصرامة والعبوس وتبحث في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها وواقعها ولو مؤقتاً مما يعيد التوازن النفسي ويؤدي إلى أداء أفضل ، وهو استراحة واسترواح ، ونشوة تنتج عن

انقباض العضلات وتفرغ التوتر الجسمي والنفسي وهذا رأي شائع ومنطق عام يؤيده كثيرون .

يطرح بعض الفلاسفة نظريات خاصة عن الضحك مثل إن الإنسان هو الأشد ألماً بين المخلوقات الأخرى لأنه يعي أنه سيموت ولذلك كان لا بد له من أن يخترع الضحك (نيتشه الفيلسوف الألماني وقد مات منتحراً في سن الشباب) ويقول مارك توين الكاتب الأمريكي الساخر : إن روح الفكاهة ذاتها تجد مصدرها السري في الحزن لا في الفرح ، فليس هناك فكاهة في الجنة ويقول المعري ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا وبعض هذه الآراء اكتتابية ومتشائمة ولكنها تستحق التأمل والفهم .

وفي الممارسة اليومية للطب النفسي نجد في حالة اضطراب المزاج المعروفة باسم الهوس أن مزاج المريض يكون منبسّطاً مرتفعاً ومتفائلاً وهو يلعب بالكلمات ويغير من مدلولها بشكل مضحك وهو لا يتوقف عن المزاح والمرح والضحك والإضحاك والتهريج الممتع ويمكن لمزاجه أن يتغير وأن يصبح اكتئابياً لمدة دقائق أو ساعات ثم يغلب المزاج النشط وهناك أشكال خفيفة من هذا الاضطراب أقل شدة كما نجد في حالات استعمال بعض مواد الإدمان أن المريض يصبح منشراحاً ضاحكاً خيالياً ويدل ذلك على أن اضطراب كيمياء الدماغ بسبب مرضي ، أو بسبب

تناول مواد ذات تأثير نفسي مزاجي ، يمكن أن يغير المزاج بشكل مرضي إلى الفرح المفرط والضحك مما يستدعي التشخيص والعلاج. كما يدل على أن الإنسان في توازنه واعتداله وصحته لا يمكنه أن يكون مازحاً طوال الوقت أو فرحاً ومضحكاً وبالطبع يختلف الناس في شخصيتهم ومزاجهم وميولهم ومنهم معتدلون وأصحاء ومنهم مرضى ومنهم بين هذا وذاك وتدل الدراسات على أن الضحك والابتسام والنكتة والكاريكاتير يمكن لها أن تعدل المزاج وأن تخفف من التوتر والقلق كما أن مشاهدة البرامج المضحكة والأفلام الكوميدية مفيدة للصحة النفسية والجسدية ويعتبر ذلك من أساليب العلاج العامة ، والتي لا تكفي في حالات الاكتئاب الواضحة .

وأخيراً وكما هو واضح فإن فهم الضحك والفكاهة قد أثار العقول والأفكار بحثاً وصياغة لتفهيمه ، وبالتالي لفهم الإنسان وانفعالاته وتفكيره ولا يزال الإنسان ذلك المجهول ولا بد من الاعتدال في أمور الضحك والفكاهة دون إفراط أو تفريط .

من مزاح النبي ﷺ

لم يكن النبي ﷺ في حياته جافاً ولا قاسياً ولا فظاً ولا غليظاً، وإنما عند استعراض سيرته وحياته ﷺ نجدها قد تخللها نوع من الدعابة والمزاح فكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول في مزاحه إلا الحق، ووردت لنا أحاديث كثيرة في ذلك منها:

١- ما جاء عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال الصحابة: يا رسول الله إنك تداعبنا قال: ﷺ لا أقول إلا حقاً وفى رواية: إني وإن دأبتكم فلا أقول إلا حقاً.

وفى رواية ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله: ﷺ إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً ومن نماذج مزاحه بأفعاله:

تحكى كتب السنة ، أن رجلاً دميماً من أهل البادية كان اسمه زاهر بن حرام وكان يهدى للنبي ﷺ الهدية من البادية، وكان النبي ﷺ يحبه فأتاه النبي ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال: أرسلنى من هذا؟ فالتفت، فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألزق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: من يشتري العبد؟ فقال: يا رسول الله إذاً والله تجدنى كاسداً، فقال النبي ﷺ لكن عند الله لست بكاسد أنت غال، وفى رواية: أنت عند الله رابح.

وكان ﷺ يقطع ملل الحياة الزوجية ببعض المزاح للترفيه عن أهله، فقد ورد أنه ﷺ كان يسابق بعض زوجاته: فعن عائشة - رضى الله عنها - : أنها كانت مع رسول الله ﷺ فى سفر، وهى جارية، فقال لأصحابه: تقدموا، ثم قال: تعالى أسابقك، فسابقته، فسبقتة على رجلى، فلما كان بعد، خرجت معه فى سفر، فقال لأصحابه: تقدموا، ثم قال: تعالى أسابقك، ونسيت الذى كان وقد حملت اللحم، فقلت: كيف أسابقك يا

رسول الله، وأنا على هذه الحال؟ فقال: لتفعلن، فسابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك السابقة وروى عن عبد الله بن الحارث قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبدالله وعبيد الله وكثير بن العباس ثم يقول: من سبق إلى فله كذا وكذا، قال: فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم.

وكان ﷺ يستخدم الحيل اللغوية في دعابته، وذلك بأن يأتي بالكلام الذي يحتمل معنيين: معنى قريب إلى الذهن، ومعنى بعيد لا يفهمه إلا الخواص، ويقصد المعنى البعيد، وهو ما يسمى في البلاغة بالتورية، وحدث ذلك منه ﷺ في أكثر من موقف منها ممازحته لعجوز من الأنصار أتته ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز فولت المرأة تبكي، فقال رسول الله ﷺ: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله يقول: إنا أنشأناهن إنشاء، فجعلناهن أبكاراً، عرباً أتراباً (الواقعة: ٣٥-٣٧).

ومع أعرابي طلب منه جملاً حيث يحكى لنا أنس مداعبة النبي ﷺ لأعرابي طلب منه ناقة يحمل عليها متاعه في سفره: يقول أنس - رضي الله عنه - : استحمل رجل رسول الله ﷺ ، فقال النبي ﷺ: إني حاملك على ولد ناقة، فقال الرجل: يا رسول الله، وما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: وهل تلد الإبل إلا النوق .

وعن صهيب - رضى الله عنه - قال : أنه كان يأكل التمر وبه رمد ، فقال له رسول الله ﷺ أأكل وأنت أرمد؟ فقال: أنا آكل بالشق الآخر ، فضحك رسول الله ﷺ ، وفى رواية أخرى قال صهيب: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر ، فقال النبي ﷺ: ادن فكل ، فأخذت آكل من التمر ، فقال النبي ﷺ: تأكل تمرأ وبك رمد؟ قال: فقلت: إني أمضغ من ناحية أخرى ، فتبسم رسول الله ﷺ.

وكان يداعب عوف بن مالك عندما يدخل عليه ص فعن عوف الأشجعي قال: أتيت رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم ، فسلمت فرد وقال : أدخل ، فقلت : أكلي يا رسول الله؟ قال: كلك ، فدخلت قال عثمان بن أبي العاتكة قال : أدخل كلي من صغر القبة .

وثقل علي القوم متاعهم ، فقال رسول الله ﷺ لصحابي اسمه شفينة: أبسط كساءك ، فجعلوا فيه متاعهم ، فقال رسول الله ﷺ أحمل فإنما أنت سفينة ، قال : فلو حملت من يومئذ وقر بغير أو بغيرين أو ثلاثة ، حتي بلغ سبعة ما ثقل علي.

وعن أبي طيبة عبد الله بن مسلم ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فثقل علي القوم بعض متاعهم ، فجعلوا يطرحونه علي ، فمر بي النبي ﷺ ، فقال: انت زاملة.

وقوله ﷺ لرجل: أنت أبو الورد رأى ﷺ رجلاً ذو بشرة مشوبة بحمرة فداعبه مداعبة لطيفة فقال يمازحه: أنت أبو الورد.

ورأي نبي الله ﷺ جارية يتيمة عند أم سليم، وهي أم أنس بن مالك، فقال لها النبي يا رسول الله علي يتيمتي أن لا يشب الله قرنهما، فو الله لا يشب أبداً، فقال النبي: يا أم سليم، أو ما علمت أنني اتخذت عند ربي عهداً، أيما أحد من أمتي دعوت عليه ليس من أهلها أن يجعلها له طهور أو قربة يقربه بها يوم القيامة أي ان هذا الذي ورد خاص به ﷺ، ولا يجوز أن يدعو إنسان علي غيره في أهلة أو ماله، إذا كان غير مستحق ان يدعي عليه بحجة فعله ﷺ ، فهذا شئ خاص به. وقال لأنس يمازحه: يا ذا الأذنين .